حـــوار الحضـــارات

فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة

محاضرة بالمعهد الملكي البلجيكي للعلاقات الدولية

10 / 12 / 2002

الرئيسي للسياسة العالمية فيما بعد الحرب الباردة هو التفاعل بين قوة الغرب وثقافته من جهة، وقوة الحضارات غير الغربية وثقافتها من جهة أخرى» ويفرد التدليل الذي جاء به الكاتب مكانة مميزة للحضارة الإسلامية .

إن ما يشعر به المرء من سخط عند قراءة مثل هذه الطروحات الجازمة لا يكفي إذا لم نحاول دحض المحاجة التي تقوم عليها، وإذا لم ندرك خطورة ما تشكله من تهديد على السلم في العالم.

فبمراعاة كل ما تقدم قررت، وأنا أتساءل عما عساني أختاره من المواضيع لأتناوله بالمعالجة أمامكم، أن أعرض عليكم بعض الأفكار الشخصية حول «حوار الحضارات» الذي يجب أن يناقض «تصادم الحضارات» الذي يلوح به هو نتغتون HUNTINGTON وينذر به .

حضرات السيدات الفضليات والسادة الأفاضل :

في مطلع الألفية الثالثة، كانت البشرية جمعاء تتطلع متفائلة إلى عالم جديد، عالم حيث يسود السلم بدل الحرب ويخلي العنف المكان للإستقرار، إن القرن المنصرم تميز، ويالأسف، بحربين عالميتين وعدد لا يحصى من النزاعات التي لم تكن أقل وخامة، وإن كانت أقل اتساعا، والقرن التاسع عشر الذي بدأ بالعنف والمجازر، انتهى بنفس العنف ونفس المجازر.

يمكن للمرء، إذن أن يتساءل، بحق عما تتمثل فيه حضارتنا، فغداة الحرب العالمية الأولى صرخ جورج دوهامل GEORGES DUHAMEL من حيث كان شاهدا على وابل القنابل المسلط على الخنادق شرق فرنسا، وعلى أعداد الجرحى الذين كان يهرع بهم إلى المستشفيات الميدانية «لا تكمن الحضارة في مبضع الجراح وإنما في قلب الإنسان، وإلا فلا وجود لها في أي مكان».

وعلى عكس جول فيري JULES FERRY، المناصر المتحمس للإجتياح الإستعماري والمنادي بالحروب الإستعمارية باسم تفوق الأعراق والحضارات صرح شاهد اخر من شهود الحرب العالمية الأولى كان طرفا فاعلا فيها ومعنيا مباشرة بالنزاع، وأعني به كليمنصو CLEMENCEAU صرح من أعلى منبر قصر بوربون PALAIS BOURBON : «أوالهنديون عرق وضيع؟ أوالصينيون عرق وضيع؟

كلا، ليس هناك حق يخول لأم منعوتة بالراقية على أم منعوتة بالدنيا، فلنكف عن محاولة تغطية العنف نفاقا وزيفا بلبوس الحضارة؟».

وفي أعقاب مؤتمر فرساي VERSAILLES، واستجابة منه لتطلع الشعوب المستعمرة التي تركت قتلاها في قبورمجهولة بالمدافن الأوروبية، قال الرئيس ويلسون WILSON، من جهته، هذه الجملة التي زرعت أملا عظيما : «إن شعبا يخضع لقانون ولم تكن له يد في سنه، هو شعب سليب الحرية مستعبد» .

لقد استندت إلى هذه الشواهد لأبين أنه بالرغم من فوارقنا، ولكم هي عديدة وبالغة، فإننا ننتمي، كلنا لنفس الحضارة، وهي الحضارة البشرية. فحضارتنا العالمية ينبغى أن ينظر إليها، من قبل كل واحد ومن قبل الجميع، كرصيد مشترك للبشرية تم بناؤه بصبر وأناة منذ فجر التاريخ، بفضل عبقرية الشعوب وذكاء الناس على إختلاف أعراقهم ولغاتهم ومعتقداتهم .

وقد يكون من المجازفة، بل من الخطر، إعتبار أن هناك حضارة أكثر قدرة على التمدين من أخرى أوأكثر إنسانية أورسوخا في العلم من غيرها، حتى وإن صدرت عبر التاريخ، تحت طائلة الأهواء هنا وهناك، أحكام كاريكاتورية، باتة ونهائية، مثل حكم الشاعر بوشكين POUCHKINE الذي قال : «القرآن، يا له من علم فلك مقيت، لكن ياله من شعر راق، أو ذلك الذي صدر عن كاترين CATHERINE،

قيصرة روسيا، عندما حلت على تتر شبه جزيرة القرم CRIMEE عام 1887» إن الإسلام دين منطقي أقدر من المسيحية على تمدين آسيا. إن الحضارات كالأخوات التوائم : يعانين من البـين عند الفراق ويسعدن عند إلتئام الشمل وتقبل كل واحدة على الأخرى عند اللقاء، وفيما عدا ذلك، فلسن حضارات.

حضرات السيدات الفضليات والسادة الأفاضل،

إن إسهام الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة العالمية أمر غير معروف من حيث تنوعه وغير معترف به من حيث حجمه. وهذا يصح خصوصا وأن تأثيره على حقل التطبيق العلمي يمتد من الفلسفة إلى سوسيولوجية التاريخ، ومن الرياضيات إلى علم الفلك، ومن التنجيم إلى الطب، دون أن ننسى الإكتشافات العديدة مثل اكتشاف الأسلحة النارية والورق وحتى علم الملاحة البحرية الذي سهل الإتصال بين الشعوب. وتوسع هذا الإسهام بحيث شمل فضاءات جغرافية شاسعة تمتد من أوروبا إلى إفريقيا ومن المشرق إلى آسيا.

ولا أريد أن أعدد في هذا المقام كل ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية إلى الحضارة العالمية. إنني أحيل ذلك على المختصين الذين هم أكثر تأهيلا مني وأقوى سلاحا لتناوله بكفاءة واقتدار. غير أنه يصعب على، في ظروفنا الراهنة، حيث تغدى المغالطات مكرا رغم الأصوات المأذونة التي أدانتها، ألا أذكر على الأقل في خطوطها العريضة، بعض مراحل توسع هذه الحضارة الكونية وتطورها.

فإلى جانب بغداد وبعدها، تصدرت إسبانيا الأندلسية حركة الريادة الثقافية وخرجت بها من غياهب القرون الوسطى ودياجيرها إلى رحاب أكثر نورا وأكثر إنسانية. أفمن صلب الشرق ولد الغرب كما كتب غوستاف لوبون LE BON

GUSTAVE في كتابه «حضارة العرب» الصادر عـام 1883 في عز التدابر بين الشرق والغرب.

لقد بدأ إسهام الحضارة الإسلامية مع تأسيس بيت الحكمة، ذلكم المركز الثقافي الذي كان، خلال العهد العباسي، مصدرا حقيقيا لإشعاع العلم والثقافة. إن تأسيس بيت الحكمة هذا كان في القرن التاسع، إبان حكم المأمون، الخليفة المستنير، ابن هارون الرشيد الذي كان شارلمان CHARL EMAGNE لا يفرط في مبادلته الهدايا.

خلال ذلكم العهد، الذي شبه بعصر برقليس PERICLES، تبوأت المعرفة مكانتها المرموقة إلى جانب الدين. «ما كان للعلم أبدا ألا يكون توأم للدين» على حد ما كتب الدكتور موريس بوكاي - MAURICE / BUCAILLE.

فالعلماء والمترجمون والأدباء الذين لم يكونوا كلهم يدينون بالإسلام، كانوا يتمتعون بالرفد وبالرعاية الخاصة من قبل الخليفة. فكان ذلك بداية ازدهار بلغ أوجه في إسبانيا الأندلسية، وفي هذا الشأن، يكتب موريس بوكاي، «كانت مكتبة الخليفة في قرطبة، تحتوى 400,000 مجلدا، وكان ابن رشد يدرس فيها، وفيها كانت تدرس العلوم الاغريقية والهندية والفارسية،ولهذا السبب كان الناس يفدون من شتى أنحاء أروبا طلبا للعلم بقرطبة، كما هو الحال اليوم حيث يتوجه الناس إلى الولايات المتحدة لإتمام بعض الدراسات» ويضيف بوكاي: «لنتذكر أنه حينما كان الإسلام في عز مجده وعظمته، بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر المسيحي، حصلت اكتشافات متعددة في الجامعات الإسلامية، في حين كان التطور العلمي في البلدان المسيحية مكبلا بالأغلال».

وكانت أوروبا في القرون الوسطى تنهل، دونما عقدة، من المعارف المتدفقة من الديار الإسلامية. وعند نهاية حكم عمر طويلا (1105 -1154) طلب الملك

روجي الثاني ROGER II ملك صقلية، من الإدريسي أن يعد له خريطة العالم، فأنجز له ما طلب ببراعة فائقة، إن كان كتاب الجغرافيا الذي ألفه الإدريسي وترجمه الفارس جوبير JAUBERT قد حظي بالثناء والاستحسان من لدن رينهارد دوزي REINHARD DOSZY أحد المستشرقين الأشد ولعا بالحضارة العربية الإسلامية.

وفي ذكر الجغرافيا، يعترف للبحار ابن ماجد بالفضل في إنجاز بحوث واكتشافات مكنت فاسكو دي غاما VASCO DE GAMA من أن يكتشف المسالك البحرية، الأمر الذي فتح الطريق لاكتشاف الأمريكتين، وادخال البوصلة في الملاحة وهو، أيضا، من إنجازات العرب، والحال كذلك، بالنسبة للأسطر لاب فيما يتعلق بعلم الفلك.

وما بالك بأسطون الطب، ابن سينا، الملقب بأمير الأطباء، والذي شكلت مؤلفاته طيلة أكثر من ستة قرون مرجع الطب الجامع في العالم.

وكان محمد أبو موسى أبا الجبر، إنه قام، بطلب من الخليفة المأمون بتأليف كتاب في الجبر مكن نقله إلى اللاتينية الأوروبيين من أخذ علوم الرياضيات ويكتشفوا، لأول مرة مفاهيم مثل المماسات والحساب المثلثاتي وبشأن الرياضيات، يتحدث شازل CHASLES عن «الثورة الموفقة في العلم» أن الخوارزمي كرس نهائيا الأهمية القصوى لهذا العلم، وأعمال ابن قرة في الهندسة وفي نظرية الأعداد مازالت إلى يومنا هذا تشكل مرجعا هاما، وهل يلزم أن نذكر البطاني وإدخال الدالات المثلثية؟

فمن لا يعترف لابن خلدون بابتكار قواعد علم الإجتماع وفلسفة التاريخ؟ إنه دون بعض مؤلفاته في مغارة تقع غرب الجزائر، قرب مدينة تيارت الحالية، إن

الباحثين في مجال الحضارة يدينون له على سبيل المثال، بنظرية الأطوار، بعد ذلك وفي القرن التاسع عشر، نـقل علماء الاقتصاد وخصوصا منهم اتباع المدرسة الماركسية، نظريته حول تأثير العامل الإقتصادي في التاريخ الذي كانت عبقريته سباقـة إلى طرحـه .

فالعرب لم يكتفوا بتطوير العلوم والفلسفة والأداب، بل نشروها، كذلك، بفضل إشعاع جامعاتهم ومؤلفاتهم.

وفي العلوم التطبيقية، وفي مجال الإكتشافات ـ يصعب ذكر مئات الإختراعات التي تمت على يد المسلمين، ولنشر على الأقل، إلى أن منسوجاتهم وأسلحتهم وجنودهم وورقهم كان لها رواج واسـع عبر العالم في عهدهم الزاهـر .

لـقـد جـاء في الـرويات أن أولى الأسلحة الـنارية استعـملتها الجيوش العـربية خصوصا للدفاع عـن الجزيرة الخضراء ضد جيوش ألفونسو الأول، ويذكر المؤرخون أن الـكـونت دربـيDERBY والكونت سالزبــورىSALISBURY الإنجليزيـين الـلـذيـن حضـرا الحصـار، أحضـرا مـعـهـمـا الـبـارود إلى إنجلترا واستعـملته الجيوش الإنجليزية في معركة كريسي CRECY.

ومثلت الحضارة العربية في إسبانيا مرحلة رئيسية في تاريخ البشرية، ذلك أن أسـس كل العلوم الحديثة والحضارة المعاصرة ظهرت حقا بشبه الجزيرة الإيبيرية ومن أهمية التأثير العربي في شبه الجزيرة أن دوزي DOZY وإنجلمان ENGELMANN وضعا قاموسا للكلمات الإسبانية والبرتغاليـة ذات الأصل العربي.

وفي إيـطـالـيـا،لم يكـن الحضـور العـربـي الإسـلامي أقل أهمـيـة، فزغـريـد هـانـكـه SIGRID HUNKE. تحدثت، في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» «عن حنين صقلية للعرب» فمن هناك انطلقت فعلا المواجهة مع بيزنطا، ولكن من هناك أيضا بدأ الحوار معهـا .

وفي صقلية دائما، وبفضل العرب، كان بلاط الملوك النورمانديين مزدهرا للغاية إلى درجة أن أبا الفداء، صاحب حماة، وهو مؤرخ وجغرافي، قارنه ببلاط خلفاء، بغداد والقاهرة .

وفي آسيا، كانت امبراطوريتا فارس والهند أول من عقد اتصالات مع الحضارة العربية الإسلامية، إن هذا التمازج في الأعراق والأفكار أفضى إلى بروز أعلام لا معة في مجالات العلم والثقافة وأدى بحق إلى إغناء متبادل ومثمر ولا ريب، ويشهد تكاثر الشعراء والمبتكرين من كل الأصناف على ذلك بكل وضوح، وفي الصين والشرق الأقصى،كانت للحضارة العربية الإسلامية أصداء حميدة وأتاحت إلى جانب الإتصال بين الشعوب التي فصل بينها الموقع الجغرافي، مبادلات تجارية هامة، أوجدت اتصالات دائمة بين نخبة متعطشة إلى المعرفة، مبادلات فتحت مناهج جديدة للتفكير المشترك وخلدتها طريق الحرير وطريق التوابل .

وباعتناق الإسلام في بعض المناطق، بقيمه الأخلاقية والإنسانية، خصصت إفريقيا، من بين لهاجاتها العديدة وتقاليدها، حيزا فسيحا للغة العربية التي اعتمدت في المعاملات اليومية، وسرعان ما برزت للوجود اخوة إنسانية، ضمن المجموعات الإجتماعية شجعت التقارب الحضاري بين العرب والأفارقة، الذين واجهوا معا فيما بعد، خلال القرن التاسع عشر، الهيمنة الأجنبية، والذين جمعهم تضامن قوي أملته ضرورة تحررهم جميعا .

حضرات السيدات والسادة :

إن الإسلام قد استطاع أن ينتشر عبر العالم بفضل قيمه الإنسانية السامية، ونجد روح التسامح في صدارة هذه القيم، لا نؤكد هذا من أجل تبرئة الذمة، بل إن هناك ما يزكيه من شهادات التاريخ التي لا جدال فيها.

في البداية، وإثر حملة التفتيش المرعبة التي تلت إستعادة شبه الجزيرة الإيبيرية إثر سقوط غزناطة عام 1492، كان مستوى التسامح شامخا في أرض الإسلام، في شمال إفريقيا والشرق الأوسط بما في ذلك اسطمبول، بحيث أن الآف اليهود المضطهدين والمطرودين من إسبانيا تم استقبالهم في هذه البلاد بحفاوة إنسانية لا نظير لها . فبعد أن ألقي بهم فيما يشبه القوراب باتجاه المغرب العربي مجردين من كل أملاكهم، مسلوبين ومهانين، تم احتضانهم في هذه المجتمعات الجديدة بقدر من الأخوة سمح لهم بالحصول على المسكن والإقامة والعمل، وبالأخص على حرية ممارسة المعتقد .

هناك مثال آخر للتسامح والشهامة في سيرة صلاح الدين الأيوبي، فبعد أن استتب له الأمر في القدس بقوة السلاح، عامل الجيوش المسيحية المهزومة برأفة ورحمة . وهو ما أثار اندهاش قادتها الذين كانوا يتوقعون منه أن يأتي عليهم عن آخرهم، نظرا للجرائم الفظيعة التي اقترفوها، لقد تم إطلاق سراح المئات من النساء بأمر من صلاح الدين، هن اللائي كن يعتقدن أن مآلهن الضم الى أحد «حرايم المشرق» .

وفي هذا الموضوع، كتب بيار روسي PIERRE ROSSI يقول: «لقد كان إمبروطور القسطنطينية من أول مهنئين لصلاح الدين باستعادة القدس في اكتوبر عام1187».

لم يكن لهذا الحلم نظير على الضفة الأخرى من المتوسط سوى عند القديس فرانسوا داسيز SAINT FRANCOIS D`ASSISES الذي أدان الدعوة إلى الحرب الصليبية من حيث هو مساس بالأخوة الفطرية بين المسيحية والإسلام

وأقرب عهدا بنا، وَفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أعطى الأمير عبد القادر مثالا آخر للتسامح والإنسانية ومن لا يعرف الأمير؟ حتى في أمريكا،

هناك مدينة تحمل إسمه، تمجيدا لخلقه الكريم وشهامته، ولقد أفرد له الشاعر الفرنسي ارتور ريمبو ARTHUR RIMBAUD قصيدة من شعر صباه عنوانها: «الأمير عبد القادر سليل يوغرطا» .

سنة 1860 بينما كان قدّم الأمير عبد القادر وساطته على 12 ألف مسيحي مهددين بالموت المؤكد على يد المسلمين، عن حماية رفاقه في المنفى كانت حرب القرم CRIMEE قد انتهت لتوها، وقد أنقذ الحلفاء الفرنسيون والبريطانيون خلالها وحدة الإمبرطورية العثمانية المهددة من طرف روسيا، وتلى ذلك إصدار فرمان سلطاني عثماني يمنح بعض المزايا لمسيحيي الإمبرطورية، الأمر الذي تسبب في ثورة من البعض والنقم لدى السكان المسلمين بتحريض من بعض غلاة الموظفين العثمانيين.

وإذ أوى المئات من المسيحيين في بيته وفي بيوت رفاقه الكثر، بلغ إلى مسامع عبد القادر صراخ الحشود الثائرة وهي تصيح : «أنت الذي حاربت المسيحيين بالأمس، كيف تمانعنا في الإقتصاص منهم على شتائمهم ؟ سلم لنا أولئك الذين تخفيهم في بيتك.

فأجابهم الأمير عبد القادر : « إن ما تفعلونه عمل شنيع، ومخالف لشرع الله، أما أنا، فإنني لم أحارب مسيحيين بل غزاة زعموا أنهم مسيحيون» .

وعلى رأس رجاله المسلحين، جاب المدينة طيلة أيام بلياليها، بحثا عن المسيحيين المذعورين فأنقذ بذلك الآلاف منهم، ثم وضع تحت حمايته الشخصية القناصلة المعتمدين في دمشق .

ولقد أبدت له القوى الكبرى عرفانها وتقديرها وأرسلت إليه رسائل الثناء مشفوعة بالهدايا وأرفع النياشين والأوسمة، بعثت له روسيا الصليب الأكبر للنسر الأبيض، وفرنسا جديلة جوقة الشرف وبروسيا الصليب الأكبر للنسر الأسود،

واليونان وسام بيو الرابع، وأهدته انكلترا بندقية ذات مسورتين مرصعة بالذهب وأمريكا مسدسين مرصعين بالذهب أيضا.

إن الرجل الذي صنع هذا الصنيع المذهل، مخاطرا بحياته، ماهو إلا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، ولا يمكنني، وأنا أحيي ذكراه، أن أخفي هنا فخري وإعتزازي بهذا البطل الذي يتمثل الشعب الجزائري نفسه فيه .

وعندما أرسل إليه سماحة أسقف الجزائر بافي PAVIE سنة 1862، خطاب ثناء وعرفان، رد عليه، ما يلي : «إن ما قدمناه من جميل المسيحيين، كان من واجبنا أن نؤديه وفاء منا للعقيدة الإسلامية واحتراما لحقوق الإنسانية ».

احترام الحقوق الإنسانية، كان ذلك، عندها، إعلان عن تمسك المجموعة الدولية باحترام حقوق الإنسان.

ورغم ذلك، فبإسم حقوق الإنسان هذه بعينها، وجد دعاة الإرهاب ملاذا في بعض العواصم الغربية، وهو ما أتاح لهم إقامة شبكات حقيقية للتمويل والتخريب، ومنابر للدعاية المغرضة، ممولة في معظمها عن طريق المتاجرة بالمخدرات واقتناء ونقل الأسلحة، مستفيدين في بعض الأحيان من تواطؤات سافرة أوتكاد .

حضرات السيدات والسادة :

إن الإعتداءات التي شنت على الولايات المتحدة يوم 11 سبتمبر 2001 قد أثارت عبر العالم مشاعر الإستفظاع والتعاطف المشروعة. ولقد أثارت بطبيعة الحال، ردود فعل متضامنة مع الشعب الأمريكي وإدانة مطلقة للإرهاب الذي إجترح هذه الأعمال البشعة الشنيعة.

ولعله ليس هناك من مكان أفضل من الجزائر التي تكبدت طيلة عشر سنوات

معاناة مريرة من هذا الإرهاب الهمجي الذي سفك دماء آلاف الأبرياء من الرجال والنساء وحتى الرضع، ولعله ليس هناك من مكان أفضل من الجزائر التي عانت عدم الاكتراث وحتى عداء العالم وهي تقارع هذا التكالب الغاشم الذي لا زالت حتى اليوم، ولعله ليس هناك من مكان أفضل من الجزائر يمكن فيه تفهم ومشاطرة مشاعر الشعب الأمريكي وعزمه على ملاحقة المجرمين إلى أن يقطع دابر هذه الآفة النكراء.

ليس هناك من هو أولى منا بالتألم لكون هذه الأحداث المأساوية تستعمل في بعض الأحيان ذريعة لبعض الخلط غير المبرر ولبعض الرؤى المقزمة والإزدراء بالتاريخ القديم والحديث، مما يشوه الحقائق بشكل صارخ ويوحي بحدة بأنه لايزال هناك في الغرب تصور للإسلام والحضارة الإسلامية أقل ما يقال عنه، إنه لا يؤيد قضية التفاهم والسلام بين البشر.

كيف لا يشعر مئات الملا يين من المسلمين الذين يعيشون عبر العالم عقيدتهم في كنف الطمأنينة والسلم ببالغ الإهانة جراء بعض الأحكام التي تصل حد إنكار القيم الجوهرية للإسلام وتلك الحضارة التي بناها والمنجزات العظيمة التي أنجزتها.

كيف لا يستاؤون من أحكام، تتجاهل قرونا من التاريخ، وتقوم على أطروحات لا أساس لها، تتهم الإسلام بالدعوة إلى العنف، في حين أن العنف مرفوض لدى غالبية المسلمين لكونه يتنافى وكل تعاليم دينهم.

فقدر ما لايمكن لمحاكم التفتيش والتزمت الأعمى للقرون الوسطى أن يدنسا العقيدة المسيحية، ولا للهمجية النازية أن تصم الحضارة الغربية بالخزي، لا يمكن للطروحات الداعية إلى اللاتسامح والإنطواء على الذات والعنف أن تنتمي إلى القيم الحقيقية للإسلام والحضارة الإسلامية .

كما لا يمكن، من خلال موقف حضري غريب ومتناس للماضي، أن نقرن بين الإسلام والظلامية وأن نشكك في مسايرته للتقدم والقيم الإنسانية الكونية بينما ظلت تعالميه السمحة لقرون طوال تحث على التقدم والرقي في كل المناحي الثقافية والعلمية والتقنية، خدمة للبشرية قاطبة ؟ وبينما استطاع الإسلام أن يترجم هذا التقدم في كافة النشاطات البشرية؟ وبينما استطاع، انطلاقا من مجتمع بدوي في القرن السابع، أن يصقل، عبر العالم، حضارات مدنية غاية في الدقة والتنظيم متفتحة ومتسامحة وأن يعطي في الاندلس، أوفى مثال عن تاريخ البشرية لتعايش الثقافات والأديان في كنف السلم والتسامح.

كيف يمكن أن نتجاهل، في التقديرات التى تناقض بصفة جوهرية وبلا تورع بين الإسلام والغرب، الدور الحاسم للمفكرين والعلماء المسلمين في حركة الأفكار والمعارف التي أخرجت أوروبا من حنادس القرون الوسطى، وفي وضع اللبنات الأساسية للرقي الكوني؟

حقا، وقعت المجتمعات الإسلامية في القرن السابع عشر في تحجر فكري وركود جعلاها تتخلف تدريجيا عن ركب التقدم الفكري والتقني والإجتماعي الذي قادته من قبل والذي أغدقت عليه الشيء الكثير.

إن التحجر والركود هذين لا يمكن أن يعزيا لجوهر الدين إلا عن جهالة أوسوء نية بل إنهما ناجمان عن غياب الفكر النقدي الذي وضع حدا للنقاش الفكري المتواصل منذ عهد المعتزلة - دعاة العقلانية المتشددين تسعة قرون قبل ديكارت - إلى الأشعري وأبي حامد الغزالي الذي حض على البحث وطلب المعرفة مثلما شجع تطور معايير التنظيم الإجتماعي في اتجاه التقدم .

ولئن استطاعت نظريات وتأويلات تدعوا للاتسامح والإنكماش على الذات والتقهقر والإنغلاق على الماضي أن تنتشر مؤخرا في بلاد إسلامية، فلا بد أن

نرى فيها نتيجة ما تراكم من أشكال الحرمان والإحباط والمساس بالكرامة الجماعية والظلم والإجحاف، إنها في الغالب، رد على مواقف الإقصاء والإزدراء في عالم طبعته ولا زالت تطبعه علاقات الغالب والمغلوب، وعين المتحفظ فيها تكتشف يسهولة تدخل مصالح وصراعات أجنبية عن العالم الإسلامي.

إن التاريخ الغربي الحديث ذاته يخبرنا بأن المهانة والتعاسة الإجتماعية تواتي تطور نظريات حاقدة تدعو إلى اللاتسماح والعنف، والمؤرخون والمفكرون يبررون انتشار النازية في ألمانيا بالبنود المهينة لمعاهدة فرساي VERSAILLES وبأثار الأزمة الإقتصادية لسنة 1929 فلم يتم إذن مع هذا إقحام أواتهام المسيحية ولا الحضارة الغربية التي كانت ألمانيا إحدى أبهى مفاخرها.

وبالطريقة ذاتها، لا يمكن التحجج بالعنف المقترف في بعض الأحيان باسم الإسلام للإساءة لديانة ولحضارة ووسمهما بأنهما مصدر خطر على الإنسانية.

إن سلسلة الإهانات الفردية والجماعية الطويلة وتراكم المعاناة الإقتصادية والإجتماعية في العالم الإسلامي توفر التربة الخصبة لبزوغ مختلف أشكال التطرف وانتشارها .

ولا مندوحة عن الإعتراف، ويا للأسف، بأن الثقافة الغربية تنزع، وتغالي في ذلك، إلى تشويه الإسلام والحط من قيمته، أولا بزعم أن الحضارة الإسلامية تهديد للحضارة اليهودية المسيحية وأنها مناوئة لها بشكل أساسي، ويجنح، في الرأي العام الغربي، إلى غمط العلماء والمفكرين المسلمين ما كان لهم من إسهام خلاق في تطور المعارف على المستوى العالمي، أو في أحسن الحالات إلى اعتبار هؤلاء العلماء، مجرد نقلة سلبيين للحضارة الإغريقية، ليس إلا،ويعمد إلى فصل الإسلام عن عقيدتي التوحيد الأخريين، بينما يحتفي الإسلام بكافة رسل

وأنبياء اليهودية ويعترف بالطابع الإلهي لرسالة المسيح عيسى عليه السلام إذ نقرأ في القرآن :

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمـون».

من الممكن أن نرى في المواقف المتطرفة الرافضة للإسلام هذه أثار لا زالت موجودة، للهيمة الإستعمارية التي عانتها البلدان الإسلامية والتي أدت إلى استلاب ثقافي وإلى الحط من شأن المسلميـن هوية وعرقا.

وربما تكون كذلك نتيجة للفوارق الكبرى التى تطبع الوضع المادي في البلدان الإسلامية مقارنة بذلك السائد في البلدان الغربية، تلك الفوراق الناجمة، في معظمها، عن العلاقات الإقتصاديـة غير المتناظرة بين هاتين المجموعتين، مما يذكى مختلف أشكال الشعور بالحرمان والإحباط، في عالم تتضاعف فيه الإتصالات وتنمحي المسافات.

وأخيرا، لايمكن أن نغض الطرف عن التأثير الذي تتركه في أرض الإسلام، المعاملة الظالمـة المجحفة التي يعامل بها الغرب المتجبر الشعب الفلسطيني، الشعب الذي دفع ثمن الإنحرافات الوحشية لتاريخ أوروبا والذي حرم، منذ أكثر من خمسين سنة، خلافا لما تمليه الأخلاق وما يفرضه العدل والإنصاف، من دولته الوطنية ومن الوجود الحر.

إنـني لعلى دراية تامة بوجود مسببات داخلية لهشاشة المجتمعات الإسلامية ولضياعها المعنـوي تمهد الطريق أمام مختلف أشكال التطرف، وهي تتمثل في اللامساواة والتعاسة الإجتماعية وانحراف القيم المدنية والأخلاقية والتعسف في استعمال الحق، التي إذا تضاف، هنا وهناك، للجم طويل للفكر النقدي تكون قد

غذت وسهلت تحريف قيم التسامح والسلم والتقدم التي يدعو إليها الإسلام الحـــق.

ولا شك في أنه من الأهمية بمكان أن تتقدم المجتمعات الإسلامية في اتجاه ديمقراطية أكبر، وفي اتجاه العصرنة والعدالة الإجتماعية والترسيخ الواضح لدولة الحق والقانون إن الأمر يتعلق ههنا بمسؤولية رؤية الدول الإسلامية نفسها، ولكنه، من المهم بالنسبة لمستقبل الإنسانية، في عالم تنمحي فيه الحدود وتتشابك فيه أكثر فأكثر شتى أنواع المصالح أن، يساعد الغرب، الذي أصبح اليوم يمثل مركز القـوة والنفوذ في العالم، على مثل هذا التقدم.

وهو يستطيـع ذلك بالسعـى إلى استبدال علاقات السيطرة القائمة بينه وبين العالم الإسلامي بعلاقات شراكة خالصة، وهو يستطيع ذلك بالعمل على رفع الحواجز التي تحول دون التنمية الإقتصاديـة بفعل لعبة المصالح الأنانية والآنية وهـو يستطيع ذلك بالسعـى إلى رفع الظلم الذي حاق بالشعب الفلسطيني وهو يستطيع ذلك باتاحة تعليم لتاريـخ الأشخاص والحضارات أكثر موضوعية وأقل تحاملا توخيا لمحو دواعي التوجس والريبة والعداء بين المجتمعات البشرية ولمحو العنصرية السافرة أوالمضمرة التي تحمل رؤية أحادية مقزمة للعالم ولتقدم الفكر الإنساني.

إنه يمكننا جميعـا، انطلاقا من مثل هذه الأعمال المشتركة، إعطاء كل مغزاها للمكافحة الشرعية والضرورية للإرهاب الهمجي والقضاء على عوامل الإحباط والمهانة التي تغذي الحقد واللاتسامح .

حضرات السيدات والسادة الأفاضل :

إنه يتعين على المجموعة الدولية، التي أدركت أخيرا أن الإرهاب إنما هو آفة عالمية تتربص بالأمن الدولي وتهدده، أن تتصدى له بقوة، في كنف

احترام مقاييس الشرعية التي اعتمدتها هي نفسها وسيستقي مسعاها مشروعيته من هذا الإطار وهذا الإطار وحده، لكن يتعين علينا اجتناب كل خلط خطير والا نخطىء في تحديد العدو، ونحن نؤكد هذا الأمر ونلح عليه، إن الشعوب ليست أبدا هي من يقترف الذنب ولا يمكنها أن تتحمل مسؤولية فتك وهتك فئة خرقاء من الأشخاص، أيا كانت أصولهم وأيا كانت جنسياتهم.

إن الإسلام يحرم القتل ويتوعد من يقترفه بأشد العذاب، ولا تصبو الشعوب المسلمة إلا الى العيش في سلام مع جيرانها والإشتراك مع أتباع الديانات الأخرى في عبادة الله الواحد الأحد الرحمان الرحيم.

إن حرمان أي شعب كان من حقوقه يولد شعور بالحرمان المتزايد ويؤدي حتما إلى الريبة وحتى إلى اضمار الحقدالذي قد يتحول إلى إنتفاضة وثورة .

حضرات السيدات والسادة الأفاضل :

لقد آن الأوان لقيام هبة تضامن تجاه البلدان الأكثر فقرا وتجسيدها من خلال أعمال منسقة تحت إشراف منظمة الأمم المتحدة وبالمساعدة الطوعية والمسؤولة للبلدان الأكثر ثراء في المعمورة.

إن الإرهاب الدولي له من الإنتشار الواسع والأخطبوطي بحيث لا يمكن القضاء عليه بالعمل العسكري وحده، إن مكافحته تقتضي وضع جهاز قضائي وأمني كامل وتنسيقه على المستوى الدولي إن الأمر يتعلق بشكل جديد من أشكال الحرب، ذلك أن الشكل الجديد للعنف هذا ينبغي أن يحارب بأسلحة جديدة، إن خلاص البشرية يقتضي دفع هذا الثمن، إنه يكمن في هبة تضامنية وحازمة لكافة الدول الأعضاء في المجموعة الدولية.

إن الحرب تولد الضغائن والأحقاد والمواجد، والهوة بين الشعوب إنما تحفرها مثل هذه الأعمال التي لا يحسب لعواقبها حساب، والتي يجد فيها دعاة تصادم الحضارات مدعاة لتبرير نظرياتهم فلنكن على بينة من أمرنا، إن صراعات اليوم هي نتاج ظلم الأمس وإجحافه وظلم اليوم وإجحافه يمهدان الطريق لمواجهات الغد والعالم المضطرب الذي نعيش فيه يملي علينا الجنوح إلى الحكمة وتكريس طاقاتنا لبناء عالم أفضل.

أشكركم على كرم إصغائكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته